الدَّرسُ الثَّاني (2)
دلالة التَّضادِّ وأثرها في اختلاف المُفسِّرين

المسألةُ الأولى: تعريف التَّضادِّ ومثاله:

– التَّضادُّ هو: أن يُوضع اللَّفظ للمعنى وضدِّه. قال ابن الأنباريِّ رحمه الله (ت:328هـ) في صدر كتابه (الأضداد): «هذا كتاب ذِكْر الحروف التي تُوقِعُها العربُ على المعاني المتضادّة، فيكونُ الحرفُ منها مؤدِّياً عن معنيَيْن مختلفيْن»[1]. كما قال ابنُ فارسٍ رحمه الله (ت:392هـ): «ومن سُنَن العرب فِي الأَسماء؛ أن يسمُّوا المتضادَّين باسم واحد، نحو "الجَوْن" للأسود، و"الجَوْن" للأبيض. وأنكر ناسٌ هَذَا المذهب، وأن العرب تأتي باسم واحد لشيء وضدِّه، وهذا لَيْسَ بشيءٍ؛ وذلك أن الَّذِين رَوَوْا أن العرب تُسمي السيف مهنَّداً، والفَرَسَ طِرْفاً، هم الَّذِين رَوَوْا أن العرب تُسمِّي المتضادَّين باسمٍ واحدٍ»[2].

– ومن أمثلته في نصوص الذِّكر الحكيم؛ ما ذكر المبرِّدُ رحمه الله (ت:285هـ) في (الكامل): «وقال المفسرون في قول الله ﷻ: ﴿**فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ**﴾[القلم:20]، قولين، قال قوم: كالليل المظلم، وقال قوم: كالنهار المضيء، أي بيضاء لا شيء فيها، فهو من الأضداد»[3].

– وأمَّا في لغة العرب عامَّةً؛ فأمثلته كثيرةٌ، تشملُ الأسماء والأفعال:

فمن المتضادِّ في الأسماء: النَّاهل: العَطْشان، والناهل: الذي قد شرِب حتى رَوِيَ. والسُّدْفة في لغة تميم: الظلمة، والسُّدْفة في لغةِ قيس: الضوء. والهاجد: المصلي بالليل، والهاجد: النائم. والجَلَل: الشيء الصغير، والجلَلَ: العظيم. والصَّارِخ: المستغيث، والصارخ: المغِيث. والظّنُّ: يقينٌ وشك.

ومن المتضادِّ في الأفعال: شعَبْت الشيء أصلحته، وشَعَبته شَقَقتُهُ. وأفَدْتُ المال: أعطيتهُ غيري، وأفَدْتُه: استفَدْتُه. وأسررْتُ الشيءَ: أخفيتُه وأعلنته. وشِمْتُ السيف: أغمدتُه وسَلَلْتُه[4] وشريت المتاع أشريه: أخذته بثمن، أو أعطيته بثمن، فهو من الأضداد[5]. وأمَّا ما وقع منه في القرآن الكريم، وكان له أثرٌ في اختلاف المفسرين، فإنَّا سنخصُّه بالمسألة الثَّانية، فنقول بالله مُستعينين:

---

[1] ابن الأنباري، الأضداد، ص1.

[2] ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، ص60.

[3] المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ج1، ص188.

[4] يُنظر: السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج1، ص307-308.

[5] يُنظر: المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص203.

المسألة الثَّانية: أمثلة على ما وقع من (التضادِّ) في تفسير مُفردات القرآن الكريم:

1- من ذلك لفظ (**الأنداد**): قال ابن الأنباري رحمه الله (ت:328هـ): «والنِّدُّ يقع على معنيين متضادَّيْن؛ يقال: فلان ندّ فلان إذا كان (ضدّه)، وفلان ندُّه إذا كان (مثلَه)؛ وفسَّرَ النَّاسُ قول الله ﷻ: ﴿**فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَاداً وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[البقرة:22]»[1].

- وممن فسرها بأنها (الضد) أبو عبيدة معمر بن المثنى رحمه الله (ت:210هـ). قال في (مجاز القرآن): «(فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً) واحدها ندّ، معناها: أضداد، قال حسَّان ﷺ (ت:54هـ):

أتهجوه ولست له بندّ * فشرّكما لخيركما الفداء»[2].

- وممن فسرها بـ(المثل) ابن جرير رحمه الله (ت:310هـ). قال في (جامع البيان): «القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً﴾. قال أبو جعفر: والأنداد جمع نِدّ، والنِّدّ: العِدْلُ والمِثل، كما قال حسان بن ثابت: أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِنِدٍّ * فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ

يعني بقوله: "ولستَ له بند"، لست له بمثْلٍ ولا عِدْلٍ. وكل شيء كان نظيرًا لشيء وله شبيهًا؛ فهو له ند»[3].

- ومن الطريف استشهادُ كلٍّ من أبي عبيدة وابن جرير رحمهما الله على معنًى مُتضادٍّ بالبيت نفسه (بيت حسان ﷺ)، مع مُلاحظة أنه يُمكن تفسير الآية على الوجهين جميعًا، ولا يتأثَّر المعنى العامُّ للآية، بل يتَّسق ولا يختلف.

2 - كلمة (**القانع**) من قول الله ﷻ: ﴿**فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ**﴾[الحج:36]، قال ابن الأنباري رحمه الله (ت:328هـ): «والقانع من الأَضْداد. يقال: رَجُلٌ قانِع، إذا كان راضياً بما هو فيه لا يسأَل أحداً، ورَجُلٌ قانع إذا كان سائلاً، قال الله عزَ وجلّ: ﴿وأَطْعِمُوا القَانِعَ والمعْتَرَّ﴾، فالقانع السَّائل، والمعترّ الَّذي يعرِّض بالمسأَلة ولا يصرّح»[4]. فجزم بأن (القانع) في الآية الكريمة (السائل).

---

[1] ابن الأنباري، الأضداد، ص23-24.

[2] أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج1، ص34.

[3] ابن جرير، جامع البيان، ج1، ص368.

[4] ابن الأنباري، الأضداد، ص66.

فيما ذكر المعنيين الضدين جميعًا، ابن جرير رحمه الله (ت:310هـ) فقال: «واختلف أهل التأويل في المعنِيِّ بالقانع والمعترِّ، فقال بعضهم: القانع الذي يقنع بما أعطي أو بما عنده ولا يسأل، والمعترّ: الذي يتعرّض لك أن تطعمه من اللحم ولا يسأل [...]

وقال آخرون: القانع: هو السائل، والمعترُّ: هو الذي يعتريك ولا يسأل»[1].

وأيًّا كان المقصود، فإن هؤلاء المذكُورين، هم الذين أمر الله أن يُطعموا من البدن، كما قال ابن جرير.

3- كلمة (**أسَرُّوا**) من قول الله ﷻ: ﴿**وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ**﴾[يونس:54][2]، فإنَّ أهل اللُّغةِ وأهلَ التَّفسيرِ اختلفُوا في تأويلها على قولين: أسَرُّوا بمعنى: أخفوا، وأسَرُّوا بمعنى: أعلنُوا. قال ابنُ قُتيبة رحمه الله (ت:276هـ): «(وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ)؛ أي أظهروها، يقال: أسررتُ الشيءَ: أخفيتُه وأظهرتُه. وهو من الأضداد»[3].

- وممَّن ذهب إلى أن أسرُّوا بمعنى أخفوا؛ الفرَّاءُ رحمه الله (ت:207هـ)، قال: «وقوله: (وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ)؛ يعني الرؤساء من المشركين، أسَرُّوها من سفلتهم الَّذِينَ أضلوهم، فأسروها أي أخفوها»[4]. ومن المفسِّرين السَّمرقنديُّ رحمه الله (ت:373هـ)[5]، والثَّعلبيُّ رحمه الله (ت:427هـ)[6].

- وممَّن قال إنَّ معناها أظهروا؛ أبو عبيدة رحمه الله (ت:210هـ) وقطرب رحمه الله (ت:206هـ). قال ابنُ الأنباريِّ رحمه الله (ت:328هـ): «وقالَ أَبو عُبيدة وقُطْرب: معناه: وأَظهروا النَّدامة عند معاينة العذاب، واحتجَّا بقول الفرزدق: ولَمَّا رَأَى الحجاجَ جَرَّدَ سَيْفَهُ * أَسَرَّ الحَرُوريّ الَّذي كان أَضْمَرَا معناه: أَظهر الحَروريُّ»[7]. وقد نقلَ النَّحَّاسُ رحمه الله (ت:338هـ) قولاً جيِّدًا لثعلبٍ رحمه الله (ت:291هـ) وهو يحتجُّ لهذا القول. قال: «وقال

---

[1] ابن جرير، جامع البيان، ج18، ص636-637.

[2] هذه الآية وردت في موضعين في القرآن الكريم، لكنهما في السياق ذاته؛ وهو تحسُّر المشركين وندامتهم يوم القيامة عند معاينتهم للعذاب. وهما: قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾[يونس:54]، وقوله ﷻ: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[سبأ:33].

[3] ابن قتيبة، غريب القرآن، ص357.

[4] الفراء، معاني القرآن، ج1، ص469.

[5] يُنظر: السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص121.

[6] يُنظر: الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج5، ص135.

[7] ابن الأنباري، الأضداد، ص46.

أبو العباس: إن كان هذَا صحيحًا؛ فمعناه: بدت الندامة في أسرة وجوههم، وواحدها سِرَارٌ؛ وهي الخطوطُ التي في الجبهةِ»[1].

– وقد ذكر المعنيين جميعًا ابنُ جريرٍ رحمه الله (ت:310هـ)، ولكنَّها مُفرَّقةٌ في موضعين؛ فقال مرَّةً: «وقوله: (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب)، يقول: وأخفتْ رؤساء هؤلاء المشركين من وضعائهم وسفلتهم الندامةَ حين أبصرُوا عذاب الله قد أحاط بهم، وأيقنوا أنه واقع بهم»[2]. وقال في موضعٍ آخرَ: «وقد يجوز أن يكون معنى قوله: (وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ) وأظهروها، قال: وذلك أنهم قالوا: (يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا)»[3].

وسواءٌ حملنا معنى (أسرُّوا) في الآية على (أخفوا، أو أظهروا وأعلنوا)، فإنَّه لا يعدو أن يكون خلافَ تنوُّعٍ كثَّرَ المعنى وزاده، ولم يُوقعه في التَّناقض.

4– وقريبٌ جدًّا من معنى هذه الكلمة، كلمة (**أُخفيها**) من قول الله ﷻ: ﴿**إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى**﴾[طه:15]، فقدُ اختُلِفَ فيها هي أيضًا على قولين ضدَّين هما: أُخفيها بمعنى: أسترها، وأخفيها بمعنى: أظهرها. قال ابنُ الأنباريِّ رحمه الله (ت:328هـ): «وأَخْفَيت حرف من الأَضْداد؛ يقال: أَخفيت الشَّيء، إذا سترتَه، وأَخفيتُه إذا أَظْهرتَه، قال الله ﷻ: (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها)؛ فمعناه: أَكاد أَسترها، وفي قراءة أُبَيٍّ: أَكادُ أخْفيها من نفسي، فكيف أُطلعكم عليها [...] ويقال: معنى الآية: إِنَّ السَّاعة آتية أَكاد أُظهرها»[4].

5– كلمةُ (**خَبَتْ**) من قول الله ﷻ: ﴿**مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا**﴾[الإسراء:97]، أغلبُ أهل اللُّغة[5]، وأهل التَّفسير[6]، على أنَّ (خَبَتْ) بمعنى: هدأتْ وسكنت. قال ابن قتيبةَ رحمه الله (ت:276هـ):

---

[1] النحاس، معاني القرآن، ج3، ص300.

[2] ابن جرير، جامع البيان، ج15، ص103.

[3] المصدر نفسه، ج18، ص291.

[4] ابن الأنباري، الأضداد، ص95–96. ولكنَّ هذه الآية عند التَّأمُّلِ تخرجُ عن حدِّ التَّضادِّ؛ لأنَّ مَن قال إنَّ (أخفيها بمعنى أُظهرها) اعتمد على قراءة الحسن وسعيد بن جبير رحمهما الله في الشَّاذِّ، وقد قرآها: (أَخْفيهَا) بفتح الهمزةِ بمعنى أُظهرُها وأُبرِزها، وهي من (خَفَيْتُ الشيءَ أي أظهرته) فهو ثلاثيٌّ، فيما (أَخفيتُ الشيءَ بمعنى سترته) رباعيٌّ، وعلى ذلك فليستا كلمةً واحدةً. يُنظر: ابن جرير، جامع البيان، ج15، ص285–286. و: السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص392. و: الثعلبي، الكشف والبيان، ج6، ص241.

[5] يُنظر مثلاً: أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج1، ص391. و: ابن قتيبة، غريب القرآن، ص261. و: النحاس، معاني القرآن، ج4، ص197–198.

[6] يُنظر على سبيل المثال: ابن جرير، جامع البيان، ج17، ص560. و: السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص330. و: الثعلبي، الكشف والبيان، ج6، ص136.

«(كُلَّمَا خَبَتْ)؛ أي: سكنت، يقال: خَبَت النار؛ إذا سكن لهبها، تَخْبُو»[1]. وقال ابن جريرٍ رحمه الله (ت:310هـ): «وقوله: (كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا)؛ يعني بقوله خبت: لانت وسكنت»[2].

– إلاَّ أنَّ ابنَ الأنباريِّ رحمه الله (ت:328هـ) اعتبرها من الأضدادِ فقال: «و(خَبَتْ) حرف من الأَضْداد. يقال: خَبت النَّارُ إذا سكنت، وخبت إذا حميت»[3]. ونقلَ في معنى (خَبتْ بمعنى اشتعلت) «عن ابن جريج[4] في قوله: (كُلَّمَا خَبَتْ) قال: خُبُوُّها توقُّدها؛ فإذا أَحرقتهم فلم تبق منهم شيئاً صارت جَمْراً تتوهَّج، فإذا أَعادهم الله خَلْقاً جديداً عاودتهم»[5]. كما نقل ابنُ جريرٍ رحمه الله (ت:310هـ): «عن ابن جريج، قال: قال ابن عباس (كُلَّمَا خَبَتْ) قال: خبوُّها أنها تَسَعَّرُ بهم حطبًا، فإذا أحرقتهم، فلم يبق منهم شيءٌ؛ صارت جمرا تتوهج، فإذا بُدِّلوا خلقا جديدا عاودتهم»[6].

والمرادُ بالتَّقريرِ في الأخيرِ، أنَّ هذه الأمثلة وغيرَها ممَّا يُدَّعى فيه التَّضادُّ؛ كلُّها لا تخرجُ عن اختلافِ التَّنوُّعِ في تفسيرِ الآياتِ، وذلك باتِّساقها مع المعنى العامِّ للآيةِ وعدمِ نُفورها منه.

---

[1] ابن قتيبة، غريب القرآن، ص261.

[2] ابن جرير، جامع البيان، ج17، ص560.

[3] ابن الأنباري، الأضداد، ص175.

[4] عبد الملك بن جريج المكي (ت:150هـ)؛ من أتباعِ التَّابعين، أي أنَّه في الطَّبقة الثَّالثة من طبقات مفسري السلف. يُنظر: الطيار، التفسير اللغوي، ص57-58.

[5] ابن الأنباري، الأضداد، ص176.

[6] ابن جرير، جامع البيان، ج17، ص561.